شعر الأَسر

بين أبي فراس الحمداني
والمعتمد بن عباد

الأستاذ الدكتور / محمد مختار جمعة مبروك

وزير الأوقاف

أستاذ الأدب والنقد وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين الأسبق

جامعة الأزهر – القاهرة

الطبعة الثانية

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

مقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبع طريقه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فالأسر محنة تنصهر فيها النفس الإنسانية ، وغالبا ما تظهر على حقيقتها بعيداً عن الزيف والادعاء ، وتتميز في هذه المحنة معادن الرجال ، فمنهم من تنهار قواه ، فيندب حاله ، ويبكي نفسه ، ويعلن عن حسرته وأساه ، وقد يضعف فسيتعطف ويستجدي الحرية والعفو ، ومنهم من يظل أبيّا شامخا قويا ، لا تلين له قناة ، ولا تنحني له هامة.

فشعر الأسر يكشف عن أغوار النفس الإنسانية ، ولاسيما النفوس الكبار كنفس أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد ، وغالبا ما يعبر هذا الشعر عن تجربة صادقة ، بل تجربة عميقة متفردة تنبثق من عمق المعاناة التي يعيشها الشاعر في أسره.

وقد اخترت في تناولي لهذه التجربة الشعرية اثنين من أعلام الشعر العربي، هما: أبو فراس الحمداني ، والمعتمد بن عباد.

أما أبو فراس فارس بني حمدان فقد جاءت روملياته صورة لمأساته ، أطلعنا فيها على عمق معاناته ، وجعلنا نعيش معه هذه التجربة التي انعكست بوضوح على شعره ، ولاسيما أنه قد نفحها نفحة عاطفية قوية وعميقة وصادقة ، بل متفردة في توهجها وعنفوانها ، ولا نبالغ إذا قلنا : إن أبا فراس استمد مكانته الشعرية وسجل اسمه بارزاً في تاريخ الشعر العربي من خلال شعره في الأسر.

وأما المعتمد بن عباد خاتمة ملوك الطوائف فهو واحد من أعلام الشعر الأندلسي، ومن أبرز ملوك الطوائف ، إن لم يكن أبرزهم جميعا ، وقد شكل سقوط دولته مرحلة فاصلة في تاريخ الأندلس بصفة عامة ، وفي حياته هو بصفة خاصة ، فقد دارت عليه دائرة الزمن ، فحولت عزه ذلا ، وغناه فقرا ، وحريته أسراً ، مع ما كبلته به من القيود والأغلال ، واليأس وفقدان الأمل.

وقد اعتمل ذلك كله فى نفسه الشاعرة ، فجاءت تجربته الشعرية في الأسر محملة بكل هذه التقلبات، معبرة عن معاناته وما آل إليه حاله، وتنكر الأيام له، وقسوتها عليه، في عاطفة مستكينة هادئة، وفكرة واضحة تغمرها روح الحكمة والعقل.

وقد حاولت أن أكشف عن بعض أغوار النفس الإنسانية ، وانعكاس الحالة النفسية على التجربة الشعرية من خلال تناولي لشعر الأسر عند هذين الشاعرين الكبيرين.

ويأتي البحث في مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة.

أما التمهيد فيتناول مفهوم الأسر في اللغة والاصطلاح ، والفرق بينه وبين الحبس والسجن.

وأما المبحث الأول فمهاد تاريخي حول ترجمة الشاعرين.

وأما المبحث الثاني فيتناول تجربة الشاعرين في مواجهة الأسر ومعاناته النفسية.

وأما المبحث الثالث فيتناول أثر الأسر في تشكيل أغراضهما الشعرية.

ثم تأتي الخاتمة لتلخص أهم نتائج البحث ، ويعقبها فهرس لأهم مصادره.

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت ،والله من وراء القصد ، وهو مولانا فنعم المولى ونعم النصير.

أ. د / محمد مختار جمعة مبروك

عميد كلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنين بالقاهرة الأسبق

تمهيد

مفهوم الأسر

أولاً : في اللغة :

الأسر لغة : الشّدُّ ، والعَصْبُ ، وشدة الخَلْق والخُلُق[1].

وأسره يأسره أسراً و إساراً : قيده ، وأخذه أسيراً[2].

والإسار : القيد ، والحبل يشد به الأسير ، ومنه سمي الأسير أسيراً ، لأنهم كانوا يشدونه به لئلا يفلت ،وسمي كل أخيذ أسير وإن لم يشد به[3].

وقد يطلق الأسر ويراد به الحبس أو السجن ، ومنه قول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "والله لا يؤسر في الإسلام أحد بشهادة الزور ، إنا لا نقبل إلا العدول"[4] ، وقول أبي الشغب العبسي[5] – في خالد بن عبد الله القسري . وقد سجنه يوسف بن عمر الثقفي[6]:

ألا إن خير الناس قد تعلمونـــــــــه

أسير ثقيف موثقا في السلاســـــــل

فإن تسجنوا القسرى لا تسجنوا اسمه

ولا تسجنوا معروفه في القبائـــــل

وفي اللسان : كل محبوس في قِدّ أو سجن أسير[7].

وقال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[8] الأسير : المسجون ، وقال أبو سعيد الخدري : الأسير : المملوك والمسجون[9].

---

(١) القاموس المحيط : أسر.

(٢) المعجم الوسيط : أسر.

(٣) لسان العرب : أسر.

(٤) لسان العرب: أسر ، وهذا الأثر أخرجه الإمام مالك في الموطأ : كتاب الأقضية ، باب ما جاء في الشهادات ، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، جـ١ ص٤٤٨ ، ٤٤٩ بتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الشعب بدون تاريخ، ولفظه : "والله لا يؤسر رجل في الإسلام بغير العدول".

(٥) أبو الشغب : شاعر من شعراء الدولة الأموية اسمه عكرشة. انظر : البيان والتبيين للجاحظ جـ ٣ ص ٢٣٥ تحيقيق عبد السلام هارون ط دار الجيل ، ودار الفكر بيروت ، والأمالي لأبى علي القالي جـ٢ ص٩٩ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٥م.

(٦) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٣ ص ٢٣٦ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي جـ٢ ص ٩٢٧ ، ٩٢٨ تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٨٢م ، وانظر : تاريخ الطبري جـ٧ ص ٢٥٧ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار المعارف سنة ١٩٧٧م.

(٧) لسان العرب : مادة " أسر".

(٨) الإنسان : آية (٨).

(٩) انظر : روح المعاني للألوسي جـ ٢٩ ص ١٥٦ ط المركز الإسلامي للطباعة والنشر ، نشر دار التراث بالقاهرة – بدون تاريخ.

وظل هذا الترادف اللغوي بين الأسر والحبس والسجن ملحوظا من العصر الجاهلي إلى العصر الأموي، فلما جاء العصر العباسي أخذت لفظة أسير تختص بالذين يؤخذون حربا ، والسجين أو الحبيس بمن تعتقله السلطة[1].

ثانيا : في الاصطلاح:

يمكن من خلال الإشارات التي وردت في بعض المعاجم وفي كتب التفسير والحديث والفقه أن نعرف الأسر بأنه : أخذ بعض الناس على سبيل الغلبة والقهر في حرب أو نحوها.

والأسير : هو المأخوذ قهراً في حرب أو نحوها ، وجمعه أسرى وأسارى ، وعليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْ رَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾[3] ، وقوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾[4].

وعليه حديث السيدة عائشة (رضي الله عنها): "لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء زوجها أبي العاص بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة (رضي الله عنها) أدخلتها بها على أبي العاص ، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقّ لها رقة شديدة ، وقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها ، قالوا : نعم"[5].

---

(١) انظر : الأسر والسجن في شعر العرب : تاريخ ودراسة د/ أحمد مختار البزرة ص ٢٤ ، ٢٥ ط مؤسسة علوم القرآن دمشق ، بيروت سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م الطبعة الأولى ، ويدعم ذلك استقراء التطور الدلالي للكلمة.

(٢) الأنفال : آية (٧٠).

(٣) البقرة : جزء من الآية (٨٥).

(٤) الأحزاب : جزء من الآية (٢٦).

(٥) أخرجه أبو داود في سننه : كتاب الجهاد ، باب في فداء الأسرى بالمال عن السيدة عائشة (رضي الله عنها).

المبحث الأول
التعريف بالشاعرين

أ – أبو فراس الحمداني :

هو أبو فراس الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني ، ولد بالموصل سنة عشرين وثلثمائة من الهجرة ، وقيل : سنة إحدى وعشرين وثلثمائة[١].

ونشأ أبو فراس يتيما ، إذ قتل والده أبو العلاء على يد ابن أخيه ناصر الدولة سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة[٢] ، فعنيت به أمه وابن عمه سيف الدولة الحمداني الذي تعهده صبيا ، فدفع به إلى بعض المدربين يدربونه على الفروسية ، وإلى بعض المعلمين والمؤدبين وفي مقدمتهم العالم اللغوي ابن خالويه ، وسرعان ما ظهرت فروسية أبي فراس ونجابته وتفتقت شاعريته ، فولاه سيف الدولة على منبج ، وأقطعه ضيعة كبيرة بها ، وهو لا يزال شابا في السادسة عشرة من عمره[٣].

وكانت منبج حصنا منيعا لحلب ، وكان على الأمير الشاب أن يدفع عنها هجمات الروم وغاراتهم ، وأن يعمل على إخضاع القبائل المناوئة لابن عمه أو الثائرة عليه ، فأبلى بلاءً حسنا في مقارعة الأبطال ومنازلة الخطوب ، وكشف عن فروسية عجيبة وعقلية نادرة ، وهو لا ينفك – في أثناء ذلك– ينظم الشعر ، وينثر الدر في مكاتباته لسيف الدولة[٤]. فازداد إعجابه به ، وصار يميزه بالإكرام على سائر قومه، ويستصحبه في غزواته ، ويستخلفه في أعماله[٥].

وقد أسرته الروم في إحدى غاراتها على منبج ، وكانوا قد تربصوا به ، وباغتوه وهو عائد من الصيد مع أصحابه ، ولمّح له أصحابه بالفرار ، بل فر معظمهم عنه ، لكن نفسه الأبية التي تعودت الكر والإقدام أبت النقيصة ،واختارت الموت على الفرار ، فقاتل الفارس الحمداني قتال الأبطال حتى أثخنته الجراح ، وأصابه سهم بقى نصله في فخذه ، فوقع في الأسر غير آل ولا مقصر في قتال أعدائه[٦].

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ٢ ص ٥٨ ، ٦١ تحقيق إحسان عباس ط دار صادر بيروت سنة ١٩٧٠م.

(٢) المرجع السابق جـ٢ ص ٦١.

(٣) انظر : عصر الدول والإمارات (مصر – الشام) د/ شوقي ضيف ص ٧٠٧ ط دار المعارف سنة ١٩٨٤م.

(٤) انظر : تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ص ٦٤٧ المطبعة البوليسية بيروت.

(٥) انظر: يتيمة الدهر للثعالبي جـ١ ص ٥٧ تحقيق د / مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(٦) راجع : يتيمة الدهر جـ١ ص ٦٠ ، ٦١ ووفيات الأعيان جـ٢ ص ٥٨ ، وعصر الدول والإمارات (مصر – الشام) د / شوقي ضيف ص ٧٠٧ ، ٧٠٨ ومقدمة ديوانه ص ٦ ط دار صادر بيروت.

وأبطأ أو تباطأ سيف الدولة في فدائه لأسباب يختلف الكتاب في أمرها: فمنهم من يرى أن ولاية حلب كانت تتعرض في أواخر أيام سيف الدولة لضغط عسكري شديد من قبل الروم مما جعله يدخر من عنده من رجالات الروم لساعة العسرة ، فلم يتعجل الفداء ولم يبادر إليه[1].

ومنهم من يرى أن سيف الدولة كان يريده فداء عاما لكل أسرى المسلمين ، لكن الأوضاع الاقتصادية لم تكن في صالحه ، إذ كان إنفاق سيف الدولة على الجهاد والتسلح يكلف ولاية حلب الصغيرة أعباء مالية ضخمة ، فلم يكن في وسعه أن يبادر إلى الفداء ، فلما تهيأت له الظروف المواتية بادر إليه[2].

ومنهم من يرى أن سيف الدولة تباطأ في فداء أبي فراس حين خوّفه بعض المقربين إليه من طموحه وشدة اعتداده بنفسه ، وأنه شكل خطراً على سيف الدولة نفسه[3].

وأرى أنه لا مانع من أن تكون هذه الأسباب مجتمعة قد جاشت في نفس سيف الدولة ، فأدت إلى تباطئه في فداء أبي فراس.

أما الذي لا خلاف عليه فهو أن المحنة قد صقلت تجربة أبي فراس وألهبت مشاعره ، فنفح روميات نفحة عاطفية قوية بوأته مكانا متميزا بين شعراء عصره ، وسجلت اسمه بارزاً بين أعلام الشعر العربي حتى قالوا : بدئ الشعر بملك وختم بملك ، يريدون بذلك امرأ القيس وأبا فراس الحمداني[4].

وتم فداء أبي فراس سنة ٣٥٥ هـ في مفاداة عامة بعد سبع سنوات قضاها في أسره ، فعاد إلى حلب ، وولاه سيف الدولة على حمص ، غير أن الأجل لم يمهل سيف الدولة سوى عام واحد بعد فداء أبي فراس ، فخلفه ابنه أبو المعالي ، وتسلم الحكم بالوصاية عليه غلامه التركي قرغويه ، فعز على أبي فراس أن يطيع هذا الغلام، وسولت له نفسه الخروج عليه واقتطاع حمص لنفسه ، فأرسل أبو المعالي غلامه قرغويه لمحاربته في معركة دارت قرب حمص ، وانتهت بجرح أبي فراس وقتله سنة ٣٥٧هـ[5].

---

(١) انظر : الأسر والسجن في شعر العرب د/ أحمد مختار البزرة ص ٨٧.

(٢) المرجع السابق ص ٨٧ ، وانظر : عصر الدول والإمارات (مصر – الشام) د / شوقي ضيف ص ٧٠٨.

(٣) انظر : تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ص ٦٤٨.

(٤) انظر : يتيمة الدهر للثعالبي جـ١ ص ٥٧.

(٥) راجع في ذلك : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٦١ ، وعصر الدول والإمارات "مصر – الشام" د/ شوقي ضيف ص ٧٠٨ ، وتاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ص ٦٤٨ ، ومقدمة ديوانه ص ٦ ، وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان جـ ٢ ص ٩٢ ترجمة د/ عبد الحليم النجار ط دار المعارف ١٩٧٧م الطبعة الرابعة.

ب – المعتمد بن عباد :

هو أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى، كان يلقب بالمعتمد على الله ، وكان والده عباد يلقب بالمعتضد بالله ، وجده محمد يلقب بالظافر المؤيد بالله ، وينتمي نسبهم إلى ولد النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة[١].

ولد المعتمد في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة[٢] وقيل : سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة [٣]، والأول أرجح ؛إذ يدعمه ما روى من أنه حين تولى الملك كان ابن تسع وعشرين سنة وشهرين وأيام زائدة[٤] ، وقد كان توليه للملك بعد وفاة والده المعتضد في جمادى الأولى سنة إحدى وستين وأربعمائة[٥].

وقد قامت دولة بني عباد في إشبيلية سنة ٤١٤هـ على يد أبي القاسم محمد بن إسماعيل جد المعتمد، ثم اتسعت فاستولت على ملك بني حمود بالجزيرة سنة ٤٥٠هـ ، وعلى ملك بني جهور في قرطبة سنة ٤٦١هـ ، وامتدت حتى شملت مرسية في الشرق ، وأصبح بنو عباد في عهد المعتضد وابنه المعتمد أعظم ملوك الطوائف ، وأفسحهم ملكا ، وأبعدهم صيتا ، وأكثرهم ذكراً في التاريخ والأدب[٦].

وكان المعتمد ملكاً شجاعاً ، ذائع الصيت في الكرم والسخاء ، مغدقا على الأدباء والشعراء ، مقربا لهم ، حتى قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه [٧] ، مما كان له أثره الواضح في ازدهار الأدب بمملكته ،وفي وفائهم له إبّان محنته[١].

---

(١) راجع فيى أخباره : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام المجلد الأول / القسم الثاني ص ٤١ تحقيق إحسان عباس ط دار الثقافة بيروت ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى جـ٢ ص ١١٠٤ط المطبعة الأميرية سنة ١٢٧٩هـ ، والحلة السيراء لابن الأبار جـ٢ ص ٣٤ تحقيق حسين مؤنس ط دار المعارف سنة ١٩٨٥م الطبعة الثانية ، ووفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٥ ص ٢١ ، ومرآة الجنان لليافعي جـ ٣ ص ١٤٧ نشر مؤسسة الأعلم بيروت سنة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠م الطبعة الثانية ، والعبر في خبر من غبر للذهبي جـ ٢ ص ٣٥٨ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(٢) الحلة السيراء لابن الأبار جـ ٢ ص ٥٣.

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٣ ، وانظر : وفيات الأعيان جـ٥ ص ٣٧.

(٤) الحلة السيراء جـ ٢ ص ٥٣.

(٥) الحلة السيراء جـ ٢ ص٥٢ ، ٥٣ ، ووفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٤.

(٦) راجع : عصر الدول والإمارات (الأندلس) د / شرقي ضيف ص ٣٦ ط دار المعارف سنة ١٩٩٩م ، والمعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ د/ عبد الوهاب عزام ص ٧ دار المعارف سنة ١٩٧٦م.

(٧) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٤.

وكان المعتمد إلى جانب ماعرف به من الشجاعة والإقدام والأريحية للعطاء – معروفاً بحسن المعاشرة ، ولين العريكة لأصحابه ، وفيا ، صبوراً على الملمات[٢] ، غير أن بعض الكتاب يأخذون عليه انغماسه في الخمر ، وإسرافه في الملذات[٣].

وكان المعتمد شاعراً مجيداً ، رقيق الطبع ، مرهف الحس ، وهو –بلا شك– أشعر ملوك الأندلس ، يقول ابن الأبار : "ولم يك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة"[٤].

ويقول ابن بسام : وللمعتمد شعر كما انشق الكمام عن الزهر ، لو صدر مثله عمّن جعل الشعر صناعة ، واتخذه بضاعة ، لكان رائعا معجبا ، ونادراً مستغرباً ، فما ظنك برجل لا يُجِدُّ إلا راثيا ، ولا يجيد إلا عابثا؟ وهو مع ذلك يرمي فيصيب ، ويهمي فيصوب.

والعجب من المعتمد أنه مرى سحابه في كلتا حاليه فصاب ، ودعا خاطره فأجاب ، ولا تراجع له من طبع ،بل يومه في هذا الشأن دهر ، وحسنته في هذا الديوان عشر[٥].

ولعل أهم ما يميز شعر المعتمد هو أنه كان صورة واضحة لحياته في حالي نعيمه وبؤسه ، فما لبس الرجل غير ثوبه ، ولا تجشم غير طبعه.

أما محنة المعتمد وزوال ملكه ودولة ملوك الطوائف جميعا ، فمردها إلى أمرين أساسين.

أحدهما : ما آل إليه حال ملوك الطوائف من الفرقة والاختلاف ، والتنافس بل التناحر على الملك والسلطان ، إلى الحد الذي استعان فيه بعضهم بنصارى الأندلس على قتال إخوانه المسلمين في حين وحد النصارى صفوفهم ،وأخذوا يستردون المدن الواحدة تلو الأخرى من ملوك الطوائف ، واضطر ملوك الطوائف بما فيهم المعتمد بن عباد إلى دفع الجزية إلى فرناندو الأول ملك قشتالة وليون ، ثم إلى ابنه ألفونسو السادس ، غير أن ألفونسو كان طاغية يشتط في مطالبه وإذلاله لملوك الطوائف ، فلم يجدوا بدا من الاستعانة بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، فتمكنوا بمساعدته من هزيمة جيوش الفرنجة في موقعة الزلاقة ، لكن يوسف

---

(١) راجع الذخيرة لابن بسام م (١) ق (٢) ص ٧٧ وما بعدها.

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٦٨ ، ٦٩.

(٣) انظر : الحلة السيراء لابن الأبار جـ ٢ ص ٥٤ ، والمعتمد بن عباد لعلي أدهم ص ١٣٦ ط وزارة الثقافة بالقاهرة (سلسلة أعلام العرب : العدد الثاني).

(٤) الحلة السيراء جـ ٢ ص ٥٤.

(٥) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة م (١) ق (٢) ص ٤١ ، ٤٢.

سرعان ما انقض عليهم ، وضم ممالكهم الواحدة تلو الأخرى إلى سلطانه ، منهيا بذلك عصر ملوك الطوائف ، ومؤسسا لدولة المرابطين بالأندلس[1].

الأمر الآخر: إسراف ملوك الطوائف في شهواتهم وملذاتهم ، وانتشار مجالس اللهو والخمر والغناء، الأمر الذي تكثر معه الغفلة ، وتفتر فيه الهمم ، وتكل العزائم.

فبعض الكتاب يأخذون على المعتمد ولعه بالخمر ، وانغماسه في الملذات[2] ، ويرون أن ميل المعتمد إلى جانب اللهو ، وإطلاقه العنان لنسائه وشعرائه كان مثار سخط عليه ، فقد بالغ بعض نسائه في الإسراف والتدلل ، وهام بعض شعرائه المقربين كعبد الجليل بن وهبون في ملذاتهم وشهواتهم إلى درجة بلغت حد الخلاعة والمجون[3] ، مما أثار حفيظة العلماء والفقهاء ، وجعلهم يفتون بجواز خلع ملوك الطوائف جميعا، فتذكر بعض المصادر أن يوسف بن تاشفين عندما عزم على خلع ملوك الطوائف وتدبير أمر الأندلس أراد أن يستوثق من حكم الشرع في ذلك فاستفتى العلماء والفقهاء ، فأفتوه بجواز خلع هؤلاء المترفين وقتالهم إن امتنعوا جمعاً لكلمة المسلمين وتقوية لهم على الجهاد ، وأن سير بن أبي بكر قائد المرابطين بالأندلس أرسل إلى ابن تاشفين يخبره بإيثار ملوك الطوائف الدعة واللهو ، واحتمال المرابطين العناء في جهاد العدو ، وسأله رأيه في هؤلاء الملوك ، فكتب إليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل إلى أرض العدوة ، فمن فعل فذاك ، ومن أبى فحاصره وقاتله ، ولتبدأ بمن والى الثغور ، ولا تتعرض للمعتمد بن عباد إلا بعد استيلائك على البلاد، فأخذ سير يستولي على قلاعهم وحصونهم إلى أن انتهى الأمر بحصار المعتمد وأسره ، وانتهاء أمر ملوك الطوائف جميعا ، وقيام دولة المرابطين بالأندلس.

وحمل المعتمد ومن كان معه من أهل بيته إلى طنجة فبقوا بها أياما ، ثم نقلوا إلى مدينة مكناسة فأقاموا بها شهراً إلى أن صدر الأمر بنقلهم إلى مدينة أغمات على بعد ثلاثة فراسخ من مدينة مراكش.

وفي أغمات بقى المعتمد أربع سنوات منكفئا على همومه وأحزانه وقيوده إلى أن وافته منيته سنة ٤٨٨هـ[4].

---

(١) راجع الذخيرة لابن بسام: م (١) ق (٣) ص ٣٣ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ص ٢٧ وما بعدها ، والمعتمد ابن عباد لعبد الوهاب عزام ص ٣٣.

(٢) الحلة السيراء لابن الأبار جـ ٢ ص ٥٤.

(٣) انظر : نفح الطيب للمقري جـ٢ ص ١١٨٦ ، والمعتمد بن عباد لعلي أدهم ص١٣٦.

(٤) راجع : وفيات الأعيان جـ٥ ص ٢٨ ، والذخيرة لابن بسام م(١) ق (٢) ص ٥٦ ، والكامل في التاريخ لابن الأثير جـ١ ص ١٨٧ ، ص ٢٤٨ ط دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، والعبر في خبر من غبر للذهبي جـ٢ ص ٣٥٨ ، والمعتمد بن عباد لعلي أدهم ص ٣٠٦ ، والمعتمد بن عباد لعبد الوهاب عزام ص ٥٧.

المبحث الثانى
مواجهة الأسر ومعاناته النفسية
بين الشاعرين

أ – الشاعران في مواجهة المحنة :

لاشك أن الأسر أمر جد ثقيل على النفس ، وذلك للمجهول الذي ينتظر الأسير وراءه ، بل إن كثيراً من المقاتلين ليرون القتل أهون من الأسر ، وقد سئل أحد الحكماء : هل تجد شيئا أشق على النفس من الموت؟ فقال : نعم ، أن تتمنى الموت فلا تجده ، وكثيراً ما يتمنى الأسير الموت فلا يجده ، غير أن الحر الأبىّ يأبى الفرار على أية حال ، حتى لو أدى به ثباته إلى القتل أو الأسر.

ولم يؤسر أبو فراس أو المعتمد عن كلالة أو ضعف ، إنما أسر كل منهما بعد أن ألقى على الموت بنفسه ، ودافع دفاع الليوث عن عرينها ، وهو ما يعبر عنه المعتمد ابن عباد بقوله[1] :

قد رمت يوم نزالهم ... ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ ... ـص على الحشا شيء دفوع
وبذلت نفسي كي تسـ ... ـيل إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن ... بهواى ذلي والخضوع
ما سرت قط إلى القتا ... ل وكان من أملي الرجوع[2]
شيم الأولى أنا منهم ... والأصل تتبعه الفروع

فواضح من الأبيات أن المعتمد كان قد يئس من النجاة ، وانقطع به الأمل ، فلم يجد من الإقدام بدا ، فبرز للقتال حاسرا مجردا من دروعه ، لم يلبس سوى قميصه الذي أراده كفنا لنفسه ، ودفع بنفسه إلى الموت دفعا ، لأنه كان يقدر سوء المصير الذي ينتظره ، لكن أجله تأخر ، وهذا ما لا دخل له فيه ، وحسبه أنه ما سار قط إلى القتال وكان من أمله الرجوع ، وتلك شيمة آبائه وأجداده ، والأصل تتبعه الفروع.

أما أبو فراس فقد لامه بعض الناس ، وخطأوا رأيه في الثبات يوم أسر ، وقالوا لم يكن من الحكمة أن يقاتل ألفا من الروم في سبعين رجلا انكشف معظمهم عنه، فقال[3] :

تكاثر لوامي على ما أصابني ... كأن لم تكن إلا لأسري النوائب

---

(١) ديوانه ص ٨٨ ط المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥١م ، والذخيرة م١ ق ٢ ص ٥٣.

(٢) فى هذا المعنى يقول قيس بن الخطيم :

وإني في الحرب الضروس موكل ... بتقديم نفس لا أريد بقاءها

ومعنى قيس أبلغ فإذا كان المعتمد يخرج ولا أمل له في الرجوع فإن ابن الخطيم يقدم نفسا لا يريد بقاءها ، وله فضل السبق على المعتمد.

(٣) ديوانه ص ٣٦ ط دار صادر بيروت.

يقولـون : لم ينظـر عواقـب أمـره ومثليَ من تجـري عليـه العواقـب

ألم يعلـم الـذُّلانُ أن بـني الـوغى كـذاك سـليب بالرمـاح وسـالب[1]

وإن وراء الحـــزم فيهـــا ودونـــه مواقـف تنسـى دونهـن التجـارب

أرى ملء عـينيَّ الـردى فأخوضـه إذ المـوت قـدامي وخلفـي المعايـب

وأعلـم قومـا لـو تتعتعـت دونهـا لأجهضني بالذم منهم عصـائب[2]

ومـن شـرفى أن لا يـزال يعيبنـى حسود على الأمر الذى هـو عائـب

ويقول [3]:

وقال أصيحابي الفـرار أو الـردى فقلـت : همـا أمـران أحلاهمـا مـر

ولكـــنني أمضـــي لمـــا لا يعيبنـــى وحسبك من أمرين خيرهمـا الأسـر

يقولون لي: بعت السلامة بالردى فقلـت : أمـا والله مـا نـالني خسـر

وهـل يتجـافى عـنيَّ المـوت سـاعة إذا ما تجافى عـنيَّ الأسـر والضـر؟

هو الموت فاختر ما علا لـك ذكـره فلم يمت الإنسـان مـا حيـي الـذكر

وحين نوازن بين موقف أبي فراس والمعتمد ساعة الأسر نجد أن المعتمد لم يكن لديه ما يُبقي عليه ، فقد أحس بأنه فاقد كلّ شيء لا محالة ، واستشعر أن الموت بعز خير من حياة الذل والهوان ، فلـم نلحـظ في شعره أدنى تردد أو ندم على موقفه ، بل إن كان من ندم فعلى تأخر أجله ، وعدم دنو ساعته.

أما أبو فراس فمع أنه قاتل الأبطال ، وألقى على الأعداء بنفسه ، فإن رغبته في الموت لم تكن كرغبة المعتمد ، إنما ثبت خشية العار ، فآثر التي فيها منيته على التي فيها ذمه ومنقصـته ، وقـد كـان يقـدر أن وراءه حساداً شانئين لو أحجـم أو نكـص لأشـبعوه لومـا ، وأوسـعوه ذمـا ، ونسـبوه إلى الضـعف والخـور ، واتهموه في شجاعته وفروسيته ، وربما في ولائه لسيف الدولة ، وفي ذلك يقول أبو فراس [4]:

---

(١) الذلان : الذليل المهان.

(٢) تتعتعت : تقلقلت أو اضطربت ، والمراد لو حاولت الفرار أو هممت به.

(٣) ديوانه ص ١٦٠.

(٤) ديوانه ص ٨٥.

ولو لم تنل نفسي ولاءك لم أكـــن

لأوردها في نصره كل مـــــــورد

ولا كنت ألقى الألف زُرْقا عيونها

بسبعين فيها كل أشأم أنكـــــد

على أن هؤلاء الحساد مع استنكارهم لموقفه ، وتخطئتهم لرأيه فإنهم ليحسدونه على الأمر الذي يعيبونه به .

وقد رضي أبو فراس لنفسه أن يقال عنه: "غير موفق" لكنه لم يقبل أن يقال عنه: "غير نجيب" يقول[1]:

تجشمت خوف العار أعظم خطة

وأملت نصراً كان غير قريـــــب

رضيت لنفسي كان غير موفـــق

ولم ترض نفسي كان غير نجيـــب

ولا يخفى ما في قوله : "تجشمت" من إكراهه نفسه على القتال وحملها عليه حملا ، مع تصريحه بأنه تجشم ما تجشم مخافة العار ، وأنه كان بين أمرين أحلاهما مر ، فاختار الردى على الفرار ، و آثر ما لا يعيبه ، على أن الأمر كان فوق مستوى التروي والتفكير " مواقف تنسى دونهن التجارب".

وبذلك يتضح أن ثبات المعتمد كان يأسا من الحياة ، وخوفا من سوء المصير الذي ينتظره ، أما ثبات أبي فراس فقد كان خشية العار، وكبتا للشانئين والحساد.

ب – الأسر وآثاره النفسية عند الشاعرين :

لكل من الشاعرين معاناته ، فالمعتمد إنما كان يعاني تقلب الأيام به ، وتنكرها له ، فقد أحالت عزه ذلاً ، ونعيمه بؤساً ، وغناه فقراً ، وانطلاقه أسراً وحبسا ، وقيداً وغلا ، بل قيوداً وأغلالا، كما أنه كان يعاني سوء معاملة أعدائه الذين تنكروا له ، فلم يحفظوا له عهداً ولا ذمة ، أما أبو فراس فكانت معاناته مع ابن عمه سيف الدولة أكثر منها مع الروم.

وتظهر معاناة المعتمد من اللحظة الأولى لقدومه "إغمات "، فقد أنزلوه بها بلا خباء يأويه أو يستره من العيون الرامقة ، فطلب من حواء بنت تاشفين خباءً عارية ، فاعتذرت بأنه ليس عندها خباء ، فكبر ذلك على نفسه ، وأحس بالهوان ، فأنشأ يقول[1]:

---

(١) ديوانه ص ٤٠.

هـم أوقـدوا بـين جنبيـك نـارا أطـالوا بهـا في حشـاك اسـتعارا

أمـا يخجـل المجـد أن يرحلـو ك ولم يصـحبوك خبـاءً معـارا

فقـد قنعـوا المجـد إن كـان ذا ك وحاشـاهم منـك خزيـا وعـارا

يقـل لعينيـك أن يجعلـوا سـواد العيـون علـيكم شـعارا

تـراهم نسـوا حـين جـزت القفـا ر حنينـا إلـيهم وخضـت البحـارا

بعهـد لـزوم لسـبل الوفـا إذا حـاد مـن حـاد عنهـا وجـارا

وقد ضيق على المعتمد لدرجة ألجأت إحدى بناته إلى الغزل للناس سدا للجوعة وسترا للعورة ،وقد أدخل عليها فيما أدخل غزل لبنت عريف شرطته ، وكان هذا العريف يقف بين يديه – أيام مجده – يدفع الناس يوم بروزه لهم ، فعز على نفس المعتمد الأبية ما صار إليه حال بناته ، فقال يخاطب الوزير الأندلسي أبا العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر الإشبيلي ، وكان قد زار المعتمد ودعا له بطول البقاء[٢] :

دعـا لـي بالبقـاء وكيـف يهـوى أسـير أن يطـول بـه البقـاءُ

ألـيس المـوت أروح مـن حيـاة يطـول علـى الشّـقيِّ بهـا الشّـقاء

أأرغـب أن أعـيش أرى بنـاتي عـواري قـد أضـرّ بهـا الجفـاءُ

خـوادمَ بنـت مـن قـد كـان أعلـى مراتبـه – إذا أبـدو – النّـداء

وطـردُ النّـاس بـين يـدي ممـرِّي وكفُّهـمُ إذا غـصَّ الفنـاء

وركـض عـن يمـين أو شمـال لـنظم الجـيش إن رفـع اللـواء

يُعنيّـه أَمَـام أو وراء إذا اختـلَّ الأمـامُ أو الـوراءُ [٣]

وإلى جانب معاناته النفسية وإحساسه بالذل والهوان كان المعتمد يعاني من شدة القيود والأغلال التى أثقلوه بها ، يقول واصفا أثر القيد في ساقه [٤] :

---

(١) ديوانه ص ٩٧.

(٢) ديوانه ص ٩٠.

(٣) يعنيه : يشغله ، يقال : عُنى فلان بالأمر إذا اهتم وشغل به.

(٤) ديوانه ص ١١١.

تعطف في ساقي تعطف أرقـــــــــم

يساورها عضا بأنياب ضغيـــــــــم

ويقول متحسرا[1]:

قد كان كالثعبان رمحك في الـــــــورى

فغدا عليك القيد كالثعبـــــــــــان

متمردا يحميك كل تمـــــــــــــرد

متعطفا لا رحمة للعانـــــــــــــي

قلبي إلى الرحمن يشكو بثـــــــــــه

ما خاب من يشكو إلى الرحمـــــــن

ولم يكن أمام المعتمد من يشكو إليه سوى ربه ، فيلجأ إليه بالحمد المزوج بالشكوى ، فيقول [2]:

لك الحمد من بعد السيوف كبـــــــول

بساقيَّ منها في السجون حجـــــول[3]

ويوازن في تحسر بين ماضيه وحاضره ، فيقول [4]:

تبدلت من عز ظل البنـــــــــــود

بذل الحديد وثقل القيـــــــــــود[5]

وكان حديدي سناناً ذليقـــــــــا

وعضبا رقيقا صقيل الحديـــــــــد[6]

فقد صار ذاك وذا أدهمـــــــــــا

يعض بساقيّ عض الأســـــــــود[1]

---

(١) الذخيرة م ١ ق٢ ص ٦٢ ، وديوانه ص ١١٥ ، وروايته "متمرد بحذاك".

(٢) ديوانه ص ١١١.

(٣) الكبول : القيود والأغلال ، والحجول : جمع حجل ، وهو القيد ، يقال : حجل الدابة إذا قيدها بالحجال.

(٤) ديوانه ص ٩٤.

(٥) البنود : جمع بند ، وهو العلم واللواء والراية ، تكون للقائد أو الفارس.

(٦) ذليقا : حاداً قاطعا.

وكان المرابطون قد شددوا عليه في القيود خشية أن يؤدي إفلاته إلى ثورته عليهم ، ومحاولته استرداد ملكه ، أما ما دام المعتمد في أسره فلا خوف من الثورة أو التمرد ، وبخاصة بعد أن قضوا على آخر أمل له بالقضاء على ثورة ابنه عبد الجبار وقتله[٢].

أما أبو فراس فكانت معاناته مع ابن عمه أكثر منها مع الروم ، إذا كان يشعر بتباطئه في فدائه ، ويعد ذلك ضربا من التخاذل وعدم الوفاء ، وكان الروم يؤكدون له ذلك ، ويشجعونه على مكاتبة سيف الدولة ، لأنهم كانوا يرغبون في فداء بعض رجالاتهم ، وفيهم ابن قائدهم بردس ، فلما وقع ابو فراس في أيدي الروم كتب بردس إلى سيف الدولة يسأله المفاداه ، ولكن سيف الدولة لم يسرع إلى إجابته ، فعز ذلك على أبي فراس الذي كان ينتظر غير ذلك ،فإلا يكن ودّ ونسب فمصلحة الإسلام وحاجة الجهاد إليه تقتضي الإسراع في فدائه.

وقد زاد من ألمه النفسي أن يسارع الروم إلى فداء ابن أختهم ولا يسارع سيف الدولة إلى فدائه ، وفي ذلك يقول[٣]:

بنى عمنا نحن السواعد والظبا ... ويوشك يوما أن يكون ضراب[٤]

وإن رجالا ما ابنكم كابن أختهم ... حريون أن يقضى لهم ويهابوا

فعن أي عذر إن دُعوا ودُعيتم ... أبيتم – بني أعمامنا – وأجابوا

وما أدعي ما يعلم الله غيره ... رحاب عليّ للعفاة رحاب

وأفعاله للراغبين كريمة ... وأموالـه للطالبين نهاب

ولكن نبا منه بكفي صارم ... وأظلم في عينيّ منه شهاب

فإن لم يكن ودّ قديم نعده ... ولا نسب بين الرجال قراب

فأحوط للإسلام ألا يضيعني ... ولي عنك فيه حوطة ومناب

---

(١) أدهما : قيداً.

(٢) انظر في ثورة عبد الجبار بن المعتمد وقتله: نفح الطيب للمقري جـ٢ ص ١١٠٤.

(٣) ديوانه ص ٢٦.

(٤) الظبا : جمع ظُبَة (بضم الظاء وفتح الباء) ، وهى حد السيفِ والسنانِ والخنجِر.

وكان فى تأخر سيف الدولة مدعاة لسوء الظن به ، ومدخل كبير لهواجس أبي فراس تجاهه ، يقول[1]:

وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامع
وفي كل يوم لفتـــــة وخطـــــاب
فكيف وفيما بيننا ملك قيصـــــر
وللبحر حولي زخرة وعبـــــاب

وتبلغ الماساة ذروتها عندما يصله أن سيف الدولة ينسبه إلى الخمول ، ويهون من شأنه ، وذلك أن سيف الدولة بلغه أن بعض الأسرى قال : إن ثقل هذا المال على سيف الدولة كاتبنا فيه صاحب خراسان وغيره من أصحاب البلدان وخففنا عن الأمير ، فاتهم سيف الدولة أبا فراس بهذا القول لضمانه المال للروم ، فقال : ومن أين يعرف أهل خراسان ؟ فكتب إليه أبو فراس[2]:

أسيف الهدى وقريع العـــــرب
علام الجفاء؟ وفيم الغضـــــبْ ؟
وما بال كتبك قد أصبحـــــت
تنكبني مع هــذا النَّكَـــــبْ؟
أتنكر أنى شكوت الزمـــــان
وأني عتبتك فيمن عتـــــب؟
فألا رجعت فأعتبتنـــــي
وصيرت لي ولقولــي الغلـــــب
فلا تنسبنّ إليّ الخمـــــول
عليك أقمت فلم أغتـــــرب
وأصبحت منك فإن كان فضـــــل
وإن كان نقص فأنت السبـــــب
وإن خراسان إن أنكـــــرت
عُلاى فقد عَرَفَتْها حلـــــب
ومن أين ينكرني الأبعـــــدون؟
أمن نقص جد؟ أمن نقـــص أب ؟

---

(١) ديوانه ص ٢٧.

(٢) ديوانه ص ٢٨.

ألست وإياك من أســـــــــــــرة

وبيني وبينك فوق النســـــــــــب؟

ولا شك أن أبا فراس إلى جانب هذه المعاناة النفسية تجاه خـذلان سيف الدولـة لـه كـان يعـاني ذل الأسر ومواجهة المجهول ، يقول في إحدى قصائده ومكاتباته لسيف الدولة [1]:

دعوتك للجفن القريح المسهـــــد

لدي وللنوم القليل المشـــــــــرد

وما أنا إلا بين أمر وضـــــــــده

يجدد لي في كل يوم مجـــــــــدد

فمن حسن صبر بالسلامة واعــدي

ومن ريب دهر بالردى متوعـــدي

أقلب طرفي بين خل مكبـــــــل

وبيـــن صفـــــي بالحديد مصفد

وحين ثقلت عليه جراحه كتب في مطلع قصيدة أرسل بها إلى أمه [2]:

مصابي جليل والعزاء جميـــــــل

وظني بأن الله سوف يديـــــــل

جراح تحاماها الأساة مخوفـــــة

وسقمـان بـــاد منهـــا ودخيـل

وأسر أقاسيه وليل نجومـــــــــه

أرى كل شيء غيرهن يـــــــزول

تطول بي الساعات وهي قصيـــرة

وفي كل دهر لا يسرك طـــــــول

ولكنه كان يتجلد ويتصبر حتى لا يَشمت به حساده وشانئوه ، يقول [3]:

---

(١) ديوانه ص ٨٢ ، ٨٣.

(٢) ديوانه ص ٢٣٢.

(٣) ديوانه ص ٣٩.

وإني لمجزاع خلا أن عزمـــــــة

تدافع عني حسرة وتغالـــــــب

ورقبة حساد صبرت لوقعهـــــــا

لها جانب مني وللحرب جانـــب

موازنة :

أ – حين نوازن بين حال المعتمد وحال أبي فراس في أسرهما نجد أن المعتمد كان قد تسلل إليه اليأس من النجاة ، وبخاصة بعد القضاء على ولديه الراضي الذي كان على "رندة " وعبد الجبار الذي كان على حصن "أركش" وقتلهما ، وهو ما نلمسه في قوله[1]:

أسر وعسر ولا يسر أؤملـــــــــه

أستغفر الله كم لله من نظـــــــــر

ومن ثمة جاءت عاطفته هادئة هدوءاً يتناسب وما نظمه من أنات وتوجعات ، أو معاتبات للدهر ، أو تأملات في حوادثه وصروفه ، على شاكلة قوله[2]:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا

فساءك العيد في أغمات مأســـورا

ترى بناتك في الأطمار جائعـــــة

يغزلن للناس ما يملكن قطميـرا[3]

برزن نحوك للتسليم خاشعـــــة

أبصارهن حسيرات مكاسيـــــرا

قد كان دهرك إن تأمره ممتثـــلا

فردك الدهر منهيا ومأمـــــورا

من بات بعدك في ملك يسر بـــــه

فإنما بات بالأحلام مغـــــــرورًا

لقد عز عليه حاله وحال بناته يغزلن للناس بعد أن كن مخدومات منعمات ، على أن هذه الحرفة لا تفي بسد جوعتهن أو ستر عورتهن ، وقد برزن إليه يوم العيد في أطمار بالية ، مما جعله يتفجر لوعة وأسى، ويتذكر تلك الأيام الخوالي موازنا بين حالي الدهر ، يوم أن كان هو الآمر الناهي ويوم أن صار مأموراً

---

(١) ديوانه ص ١٠٠.

(٢) ديوانة ص ١٠٠ ، ١٠١ والذخيرة لابن بسام م١ ق ٢ ص ٦١ ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ص ٢٥ تصحيح محمد الصباغ ط المطبعة الخديوية ببولاق سنة ١٢٨٣هـ.

(٣) الأطمار : جمع طمر ، وهو الثوب الخلق البالى.

منهيا ذليلا كسيرا ، ويختم أبياته بحكمة مفادها أن من ركن إلى الدهر واغتر بملكه إنما يبيت مغروراً بالأحلام أو الأوهام ، لأن الدنيا لا تدوم على حال ، ولا يثبت لها عهد.

أما أبو فراس فصاحب عاطفة ملتهبة ، جياشة ، متوقدة ، وكانت أشد ما تكون ثورة وتدفقا عندما يشعر بتجاهل سيف الدولة له ، أو عندما يتعرض لشيء من الإذلال والقهر ، على نحو ما كان منه تجاه الدمستق حين قال له وهو في أسره : إنما أنتم كتاب لا تعرفون الحرب ، فرد عليه أبو فراس: نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام؟ ثم أنشأ يقول[1]:

أتزعم يا ضخم اللغاديد أننـــــــــــا
ونحن أسود الحرب لا نعرف الحــربــا
فويلك من للحرب إن لم نكن لهـــــــا
ومن ذا الذي يمسي ويضحى لها تربــا
وويلك من أردى أخاك بمرعـــــــــش
وجلل ضربا وجه والدك العضبـــــــا[2]
وويلك من خلى ابن أختك موثقـــــــا
وخلاك باللقان تبتدر الشعبـــــــا[3]
أتوعدنا بالحرب حتى كأننـــــــــا
وإياك لم يعصب بها قلبنا عصبـــــــا
لقد جمعتنا الحرب من قبل هـــــــذه
فكنا بها أُسْداً وكنت بها كلبـــــــــا
بأقلامنا أجرحت أم بسيوفنـــــــــا
وأُسْداَ الشرى سقنا إليك أم الكتبـــــــا
تفاخرنا بالطعن والضرب في الوغـــــي
لقد أوسعتك النفس يابن استها كذبـــا

إنه أشبه ما يكون بأسد هصور حبس في قفص حديدي ، وحيل بينه وبين فريسته ، فهو يغلي ويهتاج ، ويثور ، ويكاد يحطم الأسوار والقضبان ، لكن القبضة عليه قوية ، والحصار محكم ،والظروف

---

(١) ديوانه ص ٤٢.

(٢) جلل وجه والدك العضبا : عمه ضربا بالعضب وهو السيف.

(٣) اللقان : بلدة بالروم وراء خرشنة ، والشعب :الطريق في الجبل ، والمراد أنه فر هاربا.

غير مواتية ، فما كان يملك سوى تفجيرها صرخات شعرية قوية تعادل تلك الشحنات المكبوتة في خلجات نفسه.

وفي ذلك رد واضح على بروكلمان الذي يزعم أن أسر أبي فراس لم يكن له أثر في شعره[1].

على أنني أؤكد أن بروكلمان قد تعجل في هذا الحكم ، وكاد يتناقض مع نفسه حين ذكر في الترجمة نفسها أن أبا فراس صنع في أسره أشعاراً مؤثرة يشكو فيها لذويه سوء حاله ، ومنها قصيدته التي خاطب به أمه[2].

ب – أن معاناة المعتمد كانت في يأسه من النجاة ،وفي قيوده وأغلاله ، وما آل إليه حاله في الأسر من الحاجة والعوز ، وهو ما يعبر عنه بقوله[3]:

ذل وفقر أدالا عـــزة وغنـــــــــى

نعمى الليالي من البلوى على كثـــب

وقوله [4]:

وأنا اليوم رهن أســر وفقـــــــــر

مستبـــاح الحمـــــى مهيض الجنـاح

وقوله [5]:

وأبقى أسام الذل في أرض غُربـــــة

وما كنت لولا الغدر ذاك أســـــــام

أما أبو فراس فكانت معاناته مع قومه وبخاصة ابن عمه سيف الدولة الذي تباطأ في فدائه أكثر منها مع الروم ، وهو ما يعبر عنه بقوله[6]:

---

(١) انظر : تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان جـ٢ ص ٩٣.

(٢) المراجع السابق جـ ص ٩٢ ، وهي التي مطلعها :

أيا أم الأسير سقاك غيـــث بكره منك ما لقي الأسيـــــر

ديوانه ص ١٦٢ ، وسيأتي الحديث عنها في المبحث التالي.

(٣) الذخيرة م ١ ق ٢ ص ٦٨.

(٤) ديوانه ص ٩٤.

(٥) الذخيرة م١ ق ٢ ص ٦٦.

(٦) ديوانه ص ١٨٤.

إذا خفت من أخوالي الروم خطـــــة

تخوفت من أعمامي العرب أربعـــــا

وإن أوجعتني من أعاديَّ شيمـــــة

لقيت من الأحباب أدهى وأوجعـــــا

جـ – أن الأسر كان قد أخذ من نفس المعتمد ، فاستسلم لقدره المحتوم ،وأخذ يتأسى بروح الحكمة ، ويرسلها في طيات شعره ، على شاكلة قوله[1]:

أرى الدنيا الدنية لا تواتـــــــي

فأجمل في التصرف والطِـــــــلاب

ولا يغررك منها حسن بـــــــرد

له علمان من ذهب الذهـــــــاب

فأولها رجاء من ســـــــــراب

وآخرها رداء من تـــــــــراب

أما أبو فراس فكان يتجلد ويتماسك ، ويظهر اعتداده بنفسه ، ويُري الشامتين أنه لريب الدهر لا يتضعضع ، وهو ما يلخصه في نحو قوله[2]:

وما غض مني هذا الإســـــــــار

ولكن خلصت خلوص الذهـــــــب

وقوله[3]:

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتـــــى

طويل نجاد السيف رحب المقلـــــد

فإن تفتدوني تفتدوا شرف العـــــــلا

وأسرع عواد إليها معـــــــــود

وإن تفتدوني تفتدوا لعلاكـــــــــم

فتى غير مردود اللسان ولا اليـــــد

---

(١) ديوانه ص ٩٣.

(٢) ديوانه ص ٢٩.

(٣) ديوانه ص ٨٤.

يدافع عن أعراضكم بلسانـــــــــــه

ويضرب عنكم بالحسام المهنـــــــد

فما كل من شاء المعالي ينالهـــــــا

ولا كل سيار إلى المجد يهتـــــدي

وقوله[1]:

فإن عدت يوما عاد للحرب والعـــلا

وبذل الندى والجود أكرم عائـــــد

مرير على الأعداء لكن جـــــاره

إلى خصب الأكناف عذب المـــوارد[2]

منعت حمى قومي وسدت عشيرتـــي

وقلدت أهلي غرّ هذى القلائـــــد

خلائق لا يوجدن في كل ما جـــد

ولكنها في الماجد ابن الأماجـــــد

(١) ديوانه ص ٨٩.

(٢) الأكناف : جمع كنف ، ويطلق الكنف على جانب الشيء وجواره ، وما يشمله الإنسان برعايته ، يقال: كنف فلانا إذا ضمه إليه وشمله بعنايته ، وكنف الشيء إذا حفظه وصانه ، والمراد أن جاره عزيز مكـــرم فى جواره.

المبحث الثالث

أثر الأسر في تشكيل أغراضهما الشعرية

لاشك فى أن محنة الأسر وما يكابده الشاعر من آلامها ومعاناتها النفسية إنما تنعكس على تشكيل أغراضه الشعرية ، وتؤثر تأثيرا واضحا سواء في مضمونها أم في معجمها الشعري وبنيتها الأسلوبية ، وهو ما نجده واضحا في شعر الأسر عند أبي فراس والمعتمد بن عباد ، فقد ذهب أكثر شعرهما في الأسر في تصوير المحنة ، وما يتصل بها من معاناة الأسر ، وما يصاحب ذلك من الصلابة والاعتداد بالنفس كما نجد في شعر أبي فراس ، أو الرضا بالقضاء وبكاء الحظ العاثر كما نجد في شعر المعتمد.

وقد نبعت سائر أغراضهما الشعرية في الأسر من وحي المحنة وانبثقت من أعماقها على النحو التالي :

أ- الرثاء :

والرثاء هو شعر العواطف الأليمة ، والنفوس الجريحة المكلومة ، وقد سئل أحد الأعراب : لماذا تعدون الرثاء أصدق أشعاركم؟ فقال : لأننا نقوله وقلوبنا محترقة[1]:

والشاعر الراثي في أسره إنما يبكي مصابه وحاله معا ، ولاسيما إذا كان فقد من فقد يرتبط بتجربة الشاعر ومحنته ارتباطا وثيقا.

ومن هذا اللون قصيدة أبي فراس في رثاء أمه ، فعندما بلغه موتها وهو في أسره أرسلها أنات حزينة ، وحسرات باكية مبكية ، حيث يقول[2]:

أيا أم الأسير سقاك غيث ... إلى من بالفدا يأتي البشير؟

إذا ابنك سار في بر وبحر ... فمن يدعو له أو يستجير؟

حرام أن يبيت قرير عين ... ولؤم أن يلم به السرور

وقد ذقت الرازيا والمنايا ... ولا ولد لديك ولا عشير

وغاب حبيب قلبك عن مكان ... ملائكة السماء به حضور

أيا أماه كم هم طويل ... مضى بك لم يكن منه نصير

أيا أماه كم سر مصون ... بقلبك مات ليس له ظهور

أيا أماه كم بشرى بقربي ... أتتك ودونها الأجل القصير

---

(١) انظر : الرثاء في الشعر العربي د / محمود حسن أبو ناجي ص ١١ ط مكتبة الحياة بيروت.

(٢) ديوانه ص ١٦٢ ، ١٦٣.

إلى مـــن أشـــتكى؟ ولـــن أنـــاجي إذا ضـــاقت بمـــا فيهـــا الصـــدور؟
بـــأي دعـــاء داعيـــة أوقـــى؟ بـــأي ضـــياء وجـــه أســـتنير؟
بمـــن يســـتدفع القـــدر المـــوقى؟ بمـــن يســـتفتح الأمـــر العســـير؟

على أن هذا التدفق العاطفي الفريد كان له روافده ومقوماته، فقد حبست هذه الأم نفسها على أبي فراس بعد مقتل والده ، فنشأ يتيما في حجرها تتعهده وترعاه ، وتمني نفسها الأماني ببلوغه حد الشباب ، حتى شب عن الطوق فأبدى شجاعة وفروسية نادرة ، وشاعرية متميزة ، وصار ملء السمع والبصر ، ولكن القدر لم يمهلها فيه كثيرا، فكانت فجيعتها بأسره ، فانكفأت على أحزانها ، وكان كل أملها أن يبادر سيف الدولة إلى فدائه ، فلم تمل الغدو والرواح عليه ، تتشفع بل تتوسل راجية أن يسرع في مفاداة فلذة كبدها ، لكن دون جدوى ، وكان ردها خائبة يعد مصابا آخر على نفسية أبي فراس ، وفي ذلك يقول [1]:

لـــــولا العجـــــوز بمنـــــبج مـــا خفـــت أســـباب المنيـــه
ولكـــان لـــي عمـــا سألـــ ـــت مـــن الفـــدا نفـــس أبيـــه
لكـــــن أردت مرادهـــــا ولـــو انجـــذبت إلى الدنيـــه
وأرى محامـــــاتي عليـــــ ـــها أن تضـــام مـــن الحميـــه
يـــــا أمـــــاه لا تيأســـــي لله ألطـــــاف خفيـــــه
كـــم حـــادث عنـــا جـــلا هُ ، وكـــم كفانـــا مـــن بليـــه
أوصـــيك بالصـــبر الجميـــ ـــل فإنـــه خـــير الوصـــيه

وبينما هو كذلك يوصيها بالصبر ،و يعيش على الأمل ، وينتظر اليوم الذي يذهب إليها البشير فيه بإطلاق سراحه – يأتيه النذير بخبر وفاتها ، فتظلم الدنيا في عينيه ، فقد ماتت أمه حزينة مقهورة ، وحيل بينه وبين وداعها ، ولا شك أنه عاش بروحه أو تمثل آخر لحظات حياتها ، وهي تلفظ أنفاسها داعية له بانكشاف كربه ، وجلاء غمته ، وإنه ليعيش على أمل استجابة الله لدعائها ، فمن ذا يقوم مقامها في الدعاء له إذا سار في بر أو بحر؟ وبمن يستدفع القدر الموقى؟ وبمن يستفتح الأمر العسير؟ ولمن يشتكي أبو

(١) ديوانه ، ص ٣١٨.

فراس؟ ومن يناجي إذا ضاقت بما فيها الصدور؟ لا شك أن أبا فراس استرجع أو استحضر كل ذكرياته معها ، فكانت تلك الأنات الحزينة الباكية، التي تعبر بحرارة وصدق عن نفس جريحة موتورة.

أما المعتمد فكان مصابه في أولاده الذين أعدهم للشدائد والمحن ، بل للملك والسلطان ، فإذا المنية تجهز عليهم واحداً تلو الآخر في وقت هو أحوج ما يكون إليهم.

ورأى المعتمد وهو في أسره يوما قمرية حزينة وحيدة فقدت إلفها أو افتقدته، وأمامها وكر فيه طائران يغردان ، فأهاج ذلك أحزانه ، وذكره فقد أبنائه ، فأنشأ يقول[1]:

بكت أن رأت إلفين ضمها وكـــــــــر

مساء وقد أخنى على إلفها الدهـــــــر

بكت لم تُرِقْ دمعا وأسبلت عبـــــــرة

يقصّر عنها القطر مهما همى القطـــــر

بكت واحداً لم يشجها غير فقـــــــده

وأبكى لألاّف عديدهم كثـــــــــــر[2]

بنيّ صغير أو حبيب موافـــــــــــق

يمزق ذا فقر ويغرق ذا بحـــــــــــر

ونجمان زين للزمان احتواهـــــــــا

بقرطبة النكداء أو رندة القبـــــــر[3]

غدرت إذاً إن ضن جفني بقطـــــــــرة

وإن لومت نفسي فصاحبها الصبـــــر

فقل للنجوم الزهر تبكيهما معـــــــي

لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهـــــــــر

ومن ثمة فإنه لا يقوى على الصبر لفقد أبنائه وفقد آماله ، مع ما صار إليه حاله من الذل والهوان ، يقول في رثاء ولديه المأمون والراضي[4]:

---

(١) ديوانة ص ٦٨.

(٢) المراد بالألآف (هنا) : الأهل والإخوان والأصدقاء ، وكل من يأنس الإنسان بقربه.

(٣) يعني بهذا البيت ولديه الراضي والمأمون.

(٤) ديوانه ص ١٠٥ ، والذخيرة لابن بسام م ١ ق ٢ ص ٦٩ ، وانظر المعتمد بن عباد لعبد الوهاب عزام ص ٩٦.

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصبـــــــــر

سأبكي وأبكي ما تطاول من عمـــري

هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقـــــــــه

يزيد فهل بعد الكواكب من صبـــر[1]

هوى بكما المقدار عني ولم أمـــــــــت

وأدعى وفيا قد نكصت إلى الغـــــدر

توليتما والسن بعد صغيـــــــــــرة

ولم تلبث الأيام أن صغرت قـــــدري

فلو عدتما لاخترتما العود في الثـــرى

إذا أنتما أبصـــــرتمانى في الأســـر

يعيد على سمعي الحديد نشيـــــــده

ثقيلا فتبكى العين بالجس والنقـــــر

معي الأخوات الهالكات عليكمـــــــا

وأمكما الثكلى المضرمة الصـــــــدر

أبا خالد أورثتني البث خالـــــــــداً

أبا النصر مذ ودعت ودعني النصـــــر[2]

وكأنى بالمتعمد في هذه الأبيات يعزي نفسه ، ويرى أن الموت أرحم من حياة الذل والهوان ، وأن ابنيه لو عادا إلى الحياة فأبصرا حاله لاختارا العود في الثرى على أن يريا أباهما على ما هو عليه من الذل والهوان ، والقيود والأغلال.

ونلحظ فرقا واضحا بين أبي فراس الذي كان لا يزال معلقا بالأمل في الفداء حيث يقول : "إلى من بالفدا يأتى البشير" ، وبين المعتمد الذي – على ما يبدو– كان قد فقد ما بقى من بصيص أمل بالقضاء على ولديه الراضي وعبد الجبار ، إذ يخاطب ابنه الراضي الملقب بأبي نصر بقوله: "أبا النصر مذ ودعت ودعني النصر".

ومع ذلك فقد ذرف كل من أبي فراس والمعتمد دم قلبه قبل أن يذرف ماء عينه ، فما كان يبكيان مصابا واحداً ، إنما كان يبكيان حظا عاثرا ، ونوائب متتابعة متداخلة ، على حد قول أبي فراس[3]:

---

(١) رواية الديوان "فهل عند الكواكب من خُبْر"، والفتح هو ابنه المأمون ، وكان يكنى بأبي الفتح وأبي نصر، ويزيد هو ابنه الملقب بالراضي.

(٢) البث : الحزن ، و "أبو خالد" كنية الراضي ، و "أبو النصر" كنية المأمون.

(٣) ديوانه ص ٢٧٥ ويتيمة الدهر جـ١ ص ٧٩.

وإني لصبور على الرزايـــــــــــا

ولكن الكِلام على الكِـــــــــــلام[1]

جروح ما يزلن يَرِدْنَ منـــــــــــي

على جرح قرب العهـــــــــد دام

ب- الاستعطاف والعتاب والشكوى:

وتنبع هذه الفنون لدى الشاعر الأسير من وحي تجربته ، ولا يكاد يخلو شعر أحد في الأسر من الإلمام بطرف منها ، وإن تباينت طرائقهم وتفاوتت درجات تناولهم لهذه الفنون ، فقد يغلب على أحدهم طابع العتاب ، ويغلب على آخر جانب الشكوى ، وعلى ثالث الاعتذار والاستعطاف ، وفق الظروف المحيطة بأسر كل منهم ومدى صلابة نفسية الأسير أو ضعفه وتهالكه على النجاة بنفسه.

أما أبو فراس فقد غلب عليه جانب العتاب ، لأنه كان يرى أن روابط القربى والنسب بينه وبين سيف الدولة توجب له حقا في المفاداة ، وأن سيف الدولة مقصر في حقه ، متباطئ في فدائه ، غير مقدر ولاءه له أو بلاءه في سبيل توطيد أركان ملكه، ومن ثمة كان أبو فراس كثيراً ما ينحو منحى العتاب تجاه ابن عمه ، ومن ذلك قصيدته التي أرسلها إلى سيف الدولة معاتبا، وكان قد بلغه أن أمه ذهبت من منبج إلى حلب تكلم سيف الدولة في مفاداته فردها سيف الدولة خائبة ، فبعث إليه بقصيدة يقول فيها[2]:

بأي عــذر رددت والهـــــــــة

عليك دون الورى معولهـــــــــا[3]

جاءتك تمتاح رد واحدهـــــــا

ينتظر الناس كيف تقفلهـــــــــا[4]

إن كنت لم تبذل الفداء لهـــــــا

فلم أزل في رضاك أبذلهـــــــــا

تلك المودات كيف تهملهـــــــا؟

تلك المواعيد كيف تغفلهـــــــــا؟

تلك العقود التي عقدت لنـــــــا

---

(١) الكلام (بكسر الكاف) : الجراح.

(٢) ديوانه ص ٢٤٣.

(٣) والهة : حزينة.

(٤) تمتاح : تطلب ، يقال : امتاح فلانا : إذا أتاه يطلب فضله.

كيف وقد أحكمت تحللهـــــــــــا؟

أرحامنا منك لِمَ تقطّعهـــــــــــا

ولم تزل دائبا توصلهـــــــــــا؟

أين المعالي التي عرفت بهـــــــــا

تقولها دائما وتفعلهـــــــــــا؟

ويبلغه أن سيف الدولة عاتب عليه تعجله في طلب الفداء ، فيشتاط غضبا وحسرة وأسى ، ويرى أن سيف الدولة أولى بهذا العتاب منه ، فيكتب في قصيدة تكاد تتفجر من التدفق العاطفي والألم الذي يعتصر نفس أبي فراس ، حيث يقول [1]:

زماني كله غضب وعتـــــــــــب

وأنت عليّ والأيام إِلْـــــــــــب[2]

وعيش العالمين لديك سهـــــــــل

وعيشي وحده بفناك صعـــــــــب

وأنت وأنت دافع كل خطـــــــــب

مع الخطب الملم عليّ خطـــــــــب

إلى كم ذا العقاب وليس جـــــــرم

وكم ذا الاعتذار وليس ذنـــــــــب؟

فلا بالشام لذا بفيّ شـــــــــرب

ولا في الأسر رق عليّ قلـــــــــب

فلا تحمل على قلب جريـــــــــح

به لحوادث الأيام نـــــــــــدب

أمثلى تقبل الأقوال فيـــــــــــه

ومثلك يستمر عليه كـــــــــذب؟!

غير أنه يعود فيتذكر حاجته إلى سيف الدولة ، وأن أمر فدائه معلق برضاه، فيرق ويستعطف ، على شاكلة قوله[1]:

---

(١) ديوانه ص ٣١.

(٢) الإلب : القوم يجتمعون على عداوة إنسان ، يريد أبو فراس أن يقول لسيف الدولة : لا تكن أنت والأيام عليّ، فيكفي ما نالني من الأيام والقدر المحتوم.

هـــل تعطفـــان علـــى العليـــل ... لا بالأســـــــير ولا القتيـــــــل

باتـــــت تقبلـــــه الأكـــــــ ... ـــــف ســحابة الليــل الطويــل

يرعـــى النجـــوم الســـائرا ... ت مـــن الطلـــوع إلى الأفـــول

يـــا فـــارج الكـــرب العظيـــــ ... ـــــم وكاشـــف الخطـــب الجليـــل

كـــن يـــا قـــوى لـــذا الضعيـــــ ... ـــــف ويـــا عزيـــز لـــذا الـــذليل

قربـــه مـــن ســـيف الهـــدى ... في ظـــــل دولتـــــه الظليـــــل

أو مـــا كشـــفت عـــن ابـــن دا ... ود ثقـــــلات الكبـــــــول [٢]

الله يعلـــــــــم أنـــــــــه ... أملـــي مـــن الـــدنيا وســـؤلي [٣]

ولـــــئن حننـــــت إلى ذراه ... لقـــد حننـــــت إلى وصـــــول

لا بالغضـــــوب ولا الكـــــذو ... ب ولا القطـــــوب ولا الملـــــول

يـــــا عـــــدتي في النائبـــــا ... ت وظلـــــتي عنـــــد المقيـــــل

أيـــــن المحبـــــة والـــــذما ... م ومـــا وعـــدت مـــن الجميـــل؟

أما المعتمد بن عباد فلم يكن لديه من يؤمل فيه نجدة أو نصرة ، كما أنه كان على يقين بأن المرابطين لن يطلقوا سراحه مهما اعتذر أو استعطف ، وكان أقصى ما يؤمله هو أن يجد شيئا من المعاملة الكريمة ، لكنهم كانوا يعملون دائما على إضعاف روحه ، وكسر شوكته النفسية ، وتحطيم إرادته ، حتى لا يخطر بباله مجرد التفكير في الخلاص من قبضتهم ، فانكفأ الرجل على نفسه ، يشكو حاله ، ويأسى لصروف الدهر وتقلباته ، فنراه يتوجه بالشكوى إلى قيده الحديدي يستعطفه ويسترحمه ، فربما وجد فيه من الرحمة ما لا يجده عند القاسية قلوبهم ، فيقول[٤]:

قيدي أما تعلمني مسلمـــــــــــا

أبيت أن تشفق أو ترحمـــــــــا

دمي شراب لك واللحم قـــــــــد

أكلته لا تهشم الأعظمـــــــــا

---

(١) ديوانه ص ٢٣٥.

(٢) ابن داود : هو أحد الذين افتداهم سيف الدولة من الأسر.

(٣) سولي : موضع سؤالي ، وخفف لضرورة الشعر.

(٤) ديوانه ص ١١٢.

يبصرني فيك أبو هاشـــــــــــم

فينثني والقلب قد هشمـــــــــــا[1]

ارحم طفيلا طائشا لبـــــــــــه

لم يخش أن يأتيك مسترحمـــــــــا

وارحم أخيات له مثلـــــــــــه

جرعتهن السم والعلقمـــــــــــا

ولعله كان يؤمل من وراء مخاطبة هذا الجماد أن يتحرك أو يـرق لـه قلـب مـا تـزال فيـه بقيـة مـن الرحمة أو الإنسانية ، ولكن هيهات ، إنها السياسة التي لا تعرف شفقة ولا رحمة.

فلما لم يجد شفقة لا في قيده ولا في بني البشر عمد إلى شكوى الدهر ومعاتبته، على شاكلة قوله [2]:

أبى الدهر أن يقنى الحياء ويندمـــــا

وأن يمحو الذنب الذي كان قدمـــــــا

وأن يتلقى وجه عتبى وجهُـــــــــه

بعذر يغشى صفحتيه التذممـــــــــا

وقوله[3]:

قبح الدهر فماذا صنعـــــــــــا

كلما أعطى نفيسا نزعـــــــــــا

قد هو ظلما بمن عاداتـــــــــــه

أن ينادي كل من يهوي لعـــــــــا[4]

من إذا قيل الخنا صـــــــــــم وإن

نطق العافون همسا سمعـــــــــــا

قل لمن يطمع في نائلـــــــــــه

قد أزال اليأس ذاك الطمعـــــــــــا

راح لا يملك إلا دعـــــــــــوة

جبر الله العفاة الضيعـــــــــــا

---

(١) أبو هاشم بن المعتمد ، وكان صبيا ، وقد دخل على أبيه فرآه في قيوده ، فعزت على المعتمد نفسه فأنشأ هذه الأبيات.

(٢) ديوانه ص ١١٤.

(٣) ديوانه ص ١٠٨.

(٤) يهوي : يسقط. لعا : كلمة تقال للعاثر دعاء له بالإقالة من عثرته ، والمراد أنه كان يغيث الملهوف.

وبعد أن أوصدت الأبواب كلها دونه ، وانقطع به الأمل في رحمة البشر ، لم يجد سوى باب واحد لا يغلق أبدا ، هو باب اللطيف الخبير ، الرءوف الرحيم ، فلجأ إليه بشكواه ، فهو وحده القادر على كشف الضر عنه ، يقول[1]:

قلبي إلى الرحمن يشكو بثـــــــــــه

ما خاب من يشكو إلى الرحمـــــــــن

جـ - الإخوانيات

الأسر محنة تظهر فيها معادن الأصدقاء والإخوان على حقيقتها دون تجمل أو تزييف ، وقد كان إخوان المعتمد أوفياء له ، حريصين على مودته في محنته ، وذلك لأن المعتمد كان كثير الاحتفاء بإخوانه ، محبا للأدباء والشعراء ، يقربهم ويغدق عليهم ، ويدني مجلسهم منه ، مما أشعرهم بهول الفاجعة[2].

وقد زاد من شدة إحساسهم بالفاجعة ووفائهم للمعتمد ما آل إليه حالهم أيام يوسف بن تاشفين الذي كان يرى الشعراء مجموعة من المتسولين ، لا يعرفون غير التكسب ، ولا يبحثون إلا عن لقمة الخبز [3]، فكان في تقويض ملك المعتمد تقويض لمكانتهم.

وقد وفى للمعتمد في أسره شعراء كثيرون ، وتحمل بعضهم مشقة السفر إلى "أغمات" مخاطراً بنفسه لزيارة المعتمد ومواساته في محنته ، ومن هؤلاء الشعراء ابن اللبانة ، وابن حمديس ، وأبو محمد عبد الله بن إبراهيم عم الحجاري صاحب المسهب ، وغيرهم[4].

وقد زاروه زيارة وفاء لا زيارة استجداء ، فماذا كان يرجى من أسير مكبل في أغلاله ؟ وكان المعتمد يقدر لهم وفاءهم ، ويتمنى أن لو كان في يده ما يكافئهم به ، فعندما زاره ابن اللبانة في أغمات ، وحان وقت رحيله عنه ، وعلم المعتمد أنه عزم على الرحيل صرف حيله ، واستنفد ما كان من المال قبله ، وبعث إليه بعشرين مثقالا مرابطية وثوبين غير مخيطين ، وكتب معهما أبياتا ، منها[5]:

إليك النزر من كف الأسيـــــــــــر

فإن تقبل تكن عين الشكـــــــــــور

تقبل ما يذوب له حيـــــــــــاء

---

(١) ديوانه ص١١٥.

(٢) راجع الذخيرة م (١) ق (٢) ص ٤٦ ، ص ٧٧ وما بعدها ، والحلة السيراء لابن الأبار جـ ٢ ص.

(٣) انظر المعتمد بن عباد لعلي أدهم ص ٢٦٦.

(٤) انظر : المعتمد بن عباد لعبد الوهاب عزام ص٧٢ وما بعدها ،والمعتمد بن عباد لعلي أدهم ص ٣٢٦.

(٥) ديوانه ص ١٠٢.

وإن عذرته حالات الفقيـــــــــــــر

ولا تعجب لخطب غض منـــــــــــه

أليس الخسف ملتزم البـــــــــــدور؟

فرد ابن اللبانة الصلة إشفاقا عليه ، وأجابه بقوله[1]:

سقطت من الوفاء على خبيـــــــــــر

فذرني والذي لك في ضميـــــــــــري

تركت هواك وهْو شقيق دينـــــــــي

لئن شقت برودي عن غـــــــــــدور

ولا كنت الطليق من الرزايـــــــــا

إذا أصبحت أجحف بالأسيـــــــــر

أنا أدرى بفضلك منك إنـــــــــــي

لبست الظل منه في الحـــــــــرور

غني النفس أنت وإن ألحـــــــــت

على كفيك حالات الفقيـــــــــــر

تصرف في الندى حيل المعالـــــــي

فتسمح من قليل بالكثيـــــــــــر

ويبكى ابن اللبانة على أيام المعتمد متحسراً على ما ذهب بذهابها ، فيقول[2]:

انفض يديك من الدنيا وساكنهـــــــا

فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتـوا

وقل لعالمها السفلى قد كتمـــــــــت

سريرة العالم العلوي أغمـــــــاتُ

وهكذا كانت علاقة المعتمد بسائر إخوانه علاقة ود ووفاء وإخلاص[1]:

---

(١) الذخيرة م (١) ق ٢ ص ٦٢.

(٢) الذخيرة م (١) ق ٢ ص٦٣.

أما أبو فراس فكان تياها بنفسه متعاليا ، مما خلق حوله مجموعة من الحساد والشانئين ، فما إن تنكرت الأيام له حتى أخذوا يفندون رأيه ، ويحملونه وحدة تبعة ما أصابه ، وانبرى هو لهم يذم فيهم الغدر والخيانة والتقلب مع الأيام حيث كانت ، وكان لتباطئ سيف الدولة في فدائه أثر كبير في تعميق هذا الشعور في نفسه ، وفي ذلك يقول[٢] :

بمن يثق الإنسان فيما ينوبـــــــــه

ومن أين للحر الكريم صحـــــــــاب ؟

وقد صار هذا الناس إلا أقلهـــــــــم

ذئابا على أجسادهم ثيـــــــــــاب

ويقول [٣] :

أما صاحب فرد يـــدوم وفـــــــاؤه

فيصفي لمن أصفى ويرعى لمن رعـــــى

أفي كـــل دار لـــي صديـــــق أودّه

إذا ما تفرقنا حفظت وضيعـــــــــا

ويقول[٤] :

أقلّب طرفي لا أرى غير صاحـــــب

يميل مع النعماء حيث تميـــــــــل

وصرنا نرى أن المتارك محســـــن

وأن صديقا لا يضر خليـــــــــــل

أكلّ خليل هكذا غير منصـــــــف

وكلّ زمان بالكرام بخيـــــــــــل

---

(١) انظر المعتمد بن عباد لعبد الوهاب عزام ص ٧٢ والمعتمد بن عباد لعلي أدهم ص ٣١٢ وما بعدها.

(٢) ديوانه ص ٢٥.

(٣) ديوانه ص ١٨٤.

(٤) ديوانه ص ٢٣٢.

وقد علت هذه النبرة في شعر أبي فراس ، وترددت في مواضع كثيرة منه[1] ، مما يدل على عمق المأساة في نفسه ، وخيبة أمله في إخوانه وأصدقائه.

على أننا لا يمكن أن نعفي الشاعر من تبعة ذلك ، أو أن نلقى باللائمة على إخوانه وأصدقائه وحدهم ، فقد كان أبو فراس متعاليا ، شديد الاعتداد بنفسه ، لا يكاد يرى أحداً غيرها حتى في أسره ومحنته ، مما أوغر قلوب كثيرين عليه ، وأكثر من حساده وشانئيه ، حتى ذهب بعض الكتاب إلى أن سيف الدولة نفسه ربما تباطأ في فدائه لأنه "شام منه طموحا كبيراً ، وأحس منه طمعا في الملك ، وتريب من إدلاله وزهوه وشجاعته ، فرأى أن يمد في أسره ليكسر من شكوته ، ويحط من غلوائه ، ويأمن شره"[2]

د – كان للتجربة أو المحنة أثرها وانعكاسها على بناء القصيدة عند الشاعرين ، فقد خرجت أكثر أشعارهما في الأسر على النمط التقليدي لبناء القصيدة القديمة ، واتسمت بالوحدة الموضوعية ، وبوضوح الفكرة ، وسلامة العبارة وصفائها ، والبعد عن التكلف والتعقيد ، مع انسياب عاطفة قوية متدفقة ، ثائرة ملتهبة عند أبي فراس ، وهادئة رزينة عند المعتمد ، إضافة إلى معجم شعري مفعم بألفاظ الأسى والحسرة ، تنبثق مفرداته من روح التجربة بذلها وقهرها ، وقيودها وأغلالها ، وتعبر عن حالة الشاعرين النفسية بأحزانها وأشجانها.

---

(١) انظر ديوانه ص ٣٦ ، ٥٧ ، ٨٧ ، ٩٠.

(٢) تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ص ٦٤٨.

خاتمة

من خلال دراستى لشعر الأسر بين أبى فراس والمعتمد أسجل النقاط التالية :

أ- أن كلمة " الأسر " كانت تتناوب دلاليا مع كلمتى " الحبس والسجن " ، وظل الترادف اللغوى بين الألفاظ الثلاثة ملحوظاً وجارياً فى الاستعمال حتى نهاية العصر الأموى ، فلما جاء العصر العباسى أخذت كلمة أسير تختص بالذين يأخذون قسرا فى حرب أو نحوها ، والسجين والحبيس بمن تعتقله السلطة .

ب- أن شعر الأسر يعد من أهم الأغراض الشعرية التى تسبر أغوار النفس الإنسانية ، وتعكس تجربة الشاعر فى محنته بعيداً عن التصنع أو التجمل والتزييف .

جـ- أن كلا من أبى فراس والمعتمد لم يؤسر عن ضعف أو استسلام ، فقد ألقى كل منهما على الموت بنفسه ، وقاتل قتال الأبطال مؤثرا المنية على الدنية ، لكن القدر المحتوم كان لهما بالمرصاد ، حيث لا ينجي إقدام ولا حذر من القدر.

د – كان لكل من الشاعرين في أسره معاناته الخاصة ، فالمعتمد كان يعاني من تنكر الأيام له ، وتقبلها به ، مع يأسه وانقطاع أمله في النجاة ، وما آل إليه حاله وحال بناته من الذل والفقر ، والحاجة والعوز ،وثقل القيود والأغلال عليه ، وتساقط أبنائه الواحد تلو الآخر على أيدي المرابطين.

أما أبو فراس فكانت معاناته مع ابن عمه سيف الدولة أكثر منها مع الروم ، فكان يرى في تباطئ سيف الدولة في فدائه لونا من التنكر وعدم الوفاء له ، ويبدو أن الروم كان يستغلون ذلك للنيل من إباء أبي فراس وشممه ، ويعملون على كسر شوكته وتحطيم نفسيته ، فلو كان له من المكانة ما يدعى لبادر ابن عمه إلى فدائه.

هـ- أن أسر الشاعرين كان له أثره الواضح في تشكيل أغراضهما الشعرية ، فقد نبعت أشعارهما في هذه المرحلة من وحي التجربة وأعماق المحنة ، ودارت حولها أو لبست لونها ، فكان العتاب والشكوى ، وبعض الإخوانيات سواء أكانت على سبيل الوفاء كما في شعر المعتمد أم على سبيل ذكر مواقفهم السلبية من التنكر وعدم الوفاء ، والتقلب مع الأيام ، أو الحقد والحسد والشماتة ، أو اللوم والتعنيف ، وهو ما كان من أبي فراس.

كما نجد في شعرهما في الأسر الرثاء الحار الذي يبكي فيه الشاعر حاله قبل أن يبكي فقيده ، بكاء يصدر عن نفس جريحة مكلومة ، ويعبر عن واقع مر وصدمة قاسية يعاني فيها الشاعر ألم الأسر وألم الفقد معا.

و – أن هذه المحنة كان لها أثرها الواضح في إذكاء جذوة الشعر وتوقدها عند الشاعرين ، وقد أسهمت بوضوح في بروز شاعريتهما ، وحفر اسميهما في سجل الشعر العربي وشعرائه البارزين.

أهم المصادر والمراجع

١- الأسر والسجن في شعر العرب : تاريخ ودراسة د / أحمد مختار البزرة ، ط مؤسسة علوم القرآن دمشق – بيروت ، سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

٢- تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري ط المطبعة البوليسية – بيروت ، بدون تاريخ.

٣- تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ترجمة د / عبد الحليم النجار ، ط دار المعارف ١٩٧٧م.

٤- الحلة السيراء لابن الأبار تحقيق د / حسين مؤنس ، ط دار المعارف سنة ١٩٨٥م.

٥- ديوان أبي فراس ، ط دار صادر بيروت ، بدون تاريخ.

٦- ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية / جمع وتحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، مراجعة د / طه حسين ، ط المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥١م.

٧- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، تحقيق إحسان عباس ، ط دار الثقافة بيروت سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

٨- عصر الدول والإمارات "الأندلس" د/ شوقي صيف ، ط دار المعارف سنة ١٩٩٩م الطبعة الثالثة.

٩- عصر الدول والإمارات (مصر – الشام) د /شوقي ضيف ، ط دار المعارف سنة ١٩٨٤م.

١٠- قلائد العقيان للفتح بن خاقان ، تصحيح محمد الصباغ ، ط المطبعة الخديوية ببولاق سنة ١٢٨٣هـ.

١١- المعتمد بن عباد لعلي أدهم ، ط وزارة الثقافة بالقاهرة (سلسلة أعلام العرب : العدد الثاني).

١٢- المعتمد بن عباد الملك الجواد المرزأ لعبد الوهاب عزام ، ط دار المعارف سنة ١٩٧٦م.

١٣- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري ، ط دار المطبعة الأميرية سنة ١٢٧٩م.

١٤- وفيات الأعيان لابن خلكان / تحقيق إحسان عباس ، ط دار صادر بيروت سنة ١٩٧٠م.

١٥- يتيمة الدهر للثعالبي ، تحقيق د / مفيد قميحة ، ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.